

بحر النجف

الشيخ حمود الساعدي(*)

تمهيد

فرات الهندية:

كان الفرات في أيام الفتوحات الإسلامية يجري في نفس الاتجاه الذي يجري فيه نهر الهندية الحالي، فيمر بقربة برس ثم بالكوفة التي أسسها المسلمون سنة ١٧ هجرية (٦٣٨م) وينتهي في بلاد الخيرة ثم يتجاوزها ويصب في البطائح. وبقي يجري في نفس الاتجاه المذكور عدة قرون ومن ثم بدأ يتحول مجراه بصورة تدريجية إلى مجرى نهر سورا (شط الحلة الحالي) وذلك بنتيجة تراكم الترسبات الغرينية في حوضه، وتدل الروايات التاريخية أن هذا التحول بدأ في زمن البويهيين (٣٣٤-٤٤٧هـ) وتم نهائياً في أواخر الحكم العباسي.

أما النهر الذي أشار إليه ابن بطوطة في كلامه عن الكوفة عند زيارته لها سنة ٧٢٥هـ بقوله: والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ إلخ، فالمراد به فهو التاجية المتفرع ثم فرات الحلة وهذا عمي في أواخر القرن الثامن الهجري، وهو نهر قديم ذكره ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ في معجمه وقال عنه ما نصه: والتاجية نهر عليه كور بناحية الكوفة.

وتدل الروايات التاريخية أيضاً على أن يجري الفرات بعد تحوله إلى جهة شط الحلة بقي فيه نحو ستة قرون ثم غادره في القرن الثالث عشر الهجري راجعاً إلى مجراه الغربي الذي يسير في اتجاه الكوفة، وكان أهم عامل لذلك التحول هو المشروع الذي قام به آصف الدولة وزير محمد شاه الهندي لإيصال الماء إلى مدينة النجف، وذلك بشق جدول يأخذ من الضفة اليمنى لنهر الفرات فيجري في اتجاه نهر الكوفة القديم، وقد عرف هذا الجدول بعد توسعه بنهر الهندية.

وقد شرع في حفر نهر الهندية المذكور سنة ١٢٠٥هـ (١٧٩٠م) وتم العمل وجرى الماء فيه سنة ١٢٠٨هـ (١٧٩٣م) أي بعد ثلاث سنوات من الشروع بالعمل وقد أرخوا سنة جريان الماء في النهر

(*) باحث فاضل، مؤرخ محقق (ت.....).

بجملة (صدقة جارية) هكذا ذكر الشيخ محمد المهدي بن الشيخ علي الفتوني النجفي في كشكوله وهو من أدرك حفر النهر، وقد تابعه على ذلك جماعة من مؤرخي النجف وكتابها كالشيخ محمد بن الحاج عيسى كبه المعاصر للشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء في تأريخه المسمى «درر مثورة في فوائد من أبواب غير محصورة» والشيخ خضر الهنداوي المتوفى سنة ١٣٠٥هـ في مجموعته التاريخية، والسيد حسون للبراقى المتوفى سنة ١٣٣٣هـ في كتابه «اليتيمة الغروية وقلائد الدر والمرجان» والشيخ محمد عبود الكوفي النجفي المتوفى في حدود سنة ١٣٠٥هـ في كتابه «نزهة الغري».

ومن المعاصرين السيد جعفر آل بحر العلوم في «تحفة العالم» والشيخ جعفر محبوبية في «ماضي النجف وحاضرها» ومن كتاب بغداد الأستاذ الباحثة يعقوب سر كيس في «مباحث عراقية» والدكتور أحمد سوسة في «وادي الفرات ومشروع سدة الهندية» وغيرهم.

وقد انفرد عمن ذكرنا أحد مؤرخي النجف الذين أدركوا حفر النهر، فإنه ذكر في مجموعته التاريخية (التاريخ المجهول)^(١) أن ابتداء الحفر كان سنة ١٢٠٠هـ والانتهاه منه ١٢١٨هـ، وهو لا شك يقصد بذلك ابتداء المذاكرة في حفر النهر لاسنة الشروع به، إلى سنة إيصال الماء إلى نفس بلدة النجف بواسطة النفق المعروف باسم (قناة آصف الدولة) لأن هذه القناة حفرت بعد سنة ١٢٠٨هـ كما صرح بذلك السيد حسون البراقى في اليتيمة الغروية. ويؤيد ذلك ما ذكره الرحالة الفارسي الميرزا أبو طالب خان في رحلته المسماة (مسير طالبى) فإن المومى إليه كان قد توجه من بغداد لزيارة كربلاء والنجف في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢١٧هـ (أول آذار ١٨٠٣م).. قال ما تعريبه: وبعد أن قمت بواجب الزيارة في كربلاء بارحتها قاصداً النجف بطريق الحلة فقدمت إليها في اليوم نفسه ولاقيت في طريقي جدولين أولهما يقال له النهر الحسيني (الحسينية) على بعد أميال قليلة من كربلاء...

والثاني من النهرين: يقال له نهر الهندية أو الأصفى لأن النواب آصف الدولة حفره بنفقاته وهو أعرض من النهر الحسيني، والغاية من حفره إيصال الماء إلى مرقد الإمام علي، وقد بلغت نفقات هذا الجدول حتى الآن عشرة لكوك من الريات مع أنه لم يصل بعد إلى النجف لأن باشا بغداد^(٢) والرجل الذي ولاه الباشا الإشراف على العمل جعلوا النهر يمر بالكوفة وغيرها من المدن عوضاً عن جعله يجري مستقيماً.

(١) أطلقنا على هذه المجموعة التاريخية اسم التاريخ المجهول لكونها مجهولة الاسم واسم المؤلف وهي مجموعة قيمة تنتهي حوادثها بسنة ١٢٧٦هـ ويمتلك نسختها الوحيدة صديقنا حاج وداي آل حاج عطيه مؤلف كتاب تاريخ الديوانية.

(٢) يريد به سليمان باشا الكبير المتوفى سنة ١٢١٧هـ

وقد بقيت أربعة أميال (في الأصل الفارسي فرسخ واحد وهو يساوي الأميال المذكورة تقريباً) لإيصاله إلى المحل المذكور والأعمال مداوم عليه. انتهى^(١).
أقول: يريد الكاتب بقوله: والأعمال مداوم عليها. بالنسبة إلى القناة المعروفة باسم قناة آصف الدولة المتقدمة الذكر.

ثم أخذ فرات الهندية بعد التأريخ المذكور يتقدم نحو الجنوب بسرعة وخرجت منه فروع كثيرة، خاصة في منطقتي الهندية وهور الدخن (ناحية العباسية اليوم) وغمرت مياهه جميع المنخفضات الواقعة على جهتيه وصيرتها أهواراً. جاء في رحلة المنشي البغدادي التي كتبها سنة ١٢٢٧هـ/١٨٢١م، قوله في وصف المنطقة الواقعة بين الكفل والنجف: من الكفل إلى النجف أربعة فراسخ.. وفي الطريق يعبر من نهر الهندية لمرات.. وهذا النهر يأتي من الفرات ويذهب إلى النجف وفي موطنين عليه قناطر. انتهى^(٢).

أما المجرى الأصلي الذي كان ينتهي في خرائب بلدة الكوفة، فإن مياهه شكلت مستنقاعاً واسعاً يمتد من أعلى بلدة الكوفة الحالية إلى مكان قريب من بلدة أبو صخير الواقعة على بعد نحو عشرين كيلو متراً من جنوب الكوفة، وفي حدود سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م، أوجدت المياه لها طريقاً إلى منخفض بحر النجف وهو ما يسمى اليوم بنهر الصافي، وكانت مياهه تدرى من شدة الجريان وتبعث صوتاً قوياً أشبه ما يكون بالتهيق الذي يطلق عليه العامة الجعير، لذلك عرفت الترعة باسم الجعارة، وبتوالي الأيام صار اسم الجعارة يطلق على عامة الأراضي الواقعة في ضمن ناحية الحيرة.

ويدعى السادة البوزوين في مذكرة رفعوها إلى علي بازرگان قائممقام أبو صخير بتاريخ أيلول سنة ١٩٢٨م، أن جدهم المدعو سيد حسن الذي كان وكيلاً للخزاعل في منطقة الجعارة «الحيرة» هو الذي سعى بشق نهر من الأرض المعروفة اليوم باسم المهاجير إلى بحر النجف.

ومن هذا التاريخ توسع فرات الهندية وأخذ يتقدم بسرعة فائقة نحو الجنوب وغمرت مياهه المنخفض الواسع الممتد من أعلى النجف من الموضع المعروف اليوم باسم الفتحة حتى الشنافيه، وصار هذا المنخفض البالغ طوله نحو سبعين كيلو متراً بحراً متلاطم الأمواج، وما أن حلت سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م إلا وكانت السفن الشراعية الكبيرة القادمة من الشرق والمحملة بالزرار والبضائع قد تركت الطريق النهري القديم الذي كان يمر بقريّة الكريم و(٣) الملموم والحسكة

(١) مباحث عراقية ق ٢ ص ٦٣.

(٢) رحلة المنشي البغدادي، تعريب الأستاذ العزاوي ص ٩١.

(٣) تقع خرائب الكريم في شرق الفرات في نقطة تقع على مقربة من شمال بلدة الخضر، أما لملموم فتقع خرائبها في غربي فرات الديوانية مقابل بلدة الحمزة الشرقي.

«الديوانية» فالحلة، وأخذت تسلك الطريق النهري الحديد الذي يمر بالسماوة والشنافية وينتهي في النجف، وكان مرسى السفن في النجف يقع بالقرب من بستان سيد صقر «الجرىوية اليوم» الواقع على بعد كيلو مترين من جنوب سور مدينة النجف.

وفي أوائل سنة ١٣٠٥هـ، ١٨٨٧م، سعى وكيل السنية في الجعارة إلى تخفيف بحر النجف لغرض الاستفادة من أرضه وكان بحر النجف في الأيام الأخيرة يمّون من مكان إسمه المدلق، فعمد وكيل السنية إلى المكان المذكورة وأحكم سدّه، ومن هذا التأريخ تحوّل المرسى من النجف إلى «الكوفة الحالية» التي أطلق عليها في أول الأمر اسم شريعة الكوفة، أما الكوفة القديمة فكانت مندرسة تماماً ولم يبق منها سوى جامعها الأعظم.

وقد وصف المستر بارلو هذا القسم من نهر الفرات كما شاهده في سنة ١٨٨٩م، ١٣٠٦هـ فقال: إن النهر المسمى نهر الهندية يجري في الجهة اليمنى من الفرات وهو يحمل نصف مياه الفرات فيترك مدينة كربلاء على جهته الغربية وأطلال بابل في الجهة الشرقية، ثم يصل إلى مدينة النجف فينصب هناك في بحيرة تسمى بحر النجف يبلغ طولها ٦٠ ميلاً وعرضها ٣٠ ميلاً، ففي هذه الأهوار الواقعة على الجانب الغربي من نهر الهندية انتشر وباء الطاعون الذي وقع في سنة ١٨٦٧م / ١٢٨٤هـ، والمياه بعد أن تتجمع في بحر النجف تأخذ لوناً هو أقرب إلى لون مياه الأهوار فتكثر فيها الملوحة ثم تسرب إلى نهر يسمى شط الشنافية حيث تقع مدينة الشنافية على جهته اليمنى وبعد أن يجري هذا الشط لمسافة حوالي ٢٠ ميلاً نحو الجنوب ينقسم إلى فرعين، الفرع الجنوبي وهو شط العطشان الذي يستعمل للملاحة، والفرع الشرقي المعروف باسم أبي رفوش، ثم ينصب هذان الفرعان في الفرات، وما ذكره المستر بارلو أيضاً: إن أكثر الزائرين الذين يقدمون من الهند لزيارة الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف يسلكون طريق الفرات فالعطشان فشط الشنافية، وإن سفناً كبيرة ذات حمولة خمسين طناً تمر من هذا الطريق النهري الذي ينتهي بالنجف^(١)..

منطقة الجعارة:

لقد مرّ القول بأن مياه الفرات بدأت تسيل إلى منخفض بحر النجف في حدود سنة ١٢٤٠هـ ومن بعد هذا التاريخ بدأ سيل المهاجرين من أبناء عشائر الحسكة «التي أخذت تموت أراضيهم بسبب شحة المياه في شط الحلة» يتدفق إلى منطقة الجعارة، ولم يمر وقت قصير حتى عمّ أراضي منطقة الجعارة العمران وأصبحت زاهية بحقول الشلب الشاسعة المدى، وبيساتين النخيل والفاكهة الممتدة على أجراف الأنهر الصغيرة المتشعبة من الفرات، وقد اكتظت أرضها بالسكان

(١) وادي الفرات ومشروع سدة الهندية ج ٢ ص ٢٦٥.

من أبناء العشائر المهاجرة إليها من أنحاء الحسكة وغيرها كآل فتلة وآل إبراهيم وآل عيسى وآل زجري وبني تميم وبني ليث والعبودة والمراشدة والبركات والعكرات والجنابات والجبور والجلابات وفنهره والبلوش (من أصل فارسي) وعدة أسر علوية، هذا بالإضافة إلى أفراد قبيلتي آل شبل والغزالات أحلاف خزاعة، أما المشخاب فكانت أرضه في هذا التأريخ بعد لا تزال مغمورة بالمياه، «أهواراً» ولم يدب إليه العمران إلا في حدود سنة ١٢٩٦هـ، وكانت السلطة والنفوذ في منطقة الجعارة والمناطق المجاورة لها بيد آل شلال الخزاعيين وكان كبيرهم يومئذ ذرب آل مغماس آل شلال الخزاعي المتوفى في ١٩ محرم سنة ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م، وحل محله بعد وفاته ولده كريدي آل ذرب وهذا توفى في حدود سنة ١٢٧٦هـ، فحل محله ولده مطلق آل كريدي وفي عهده في سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م، تمكنت الحكومة التركية من الخزاعل وقبضت رئسهم مطلق آل كريدي آل ذرب المتقدم الذكر ونفته إلى اسطنبول، وكذلك قبضت وكيله في منطقة الجعارة السيد محمد زوين وسجنته في الحلة، وأجلت آل شبل والغزالات عن أرضهم في الجعارة وأعطتها بالالتزام إلى فرعون آل ياقوت شيخ آل فتلة. فانتقل هذا إليها من الرميثة ونزل في القلاع التي بنتها له الحكومة في سنة ١٢٨٥هـ بمن كان معه من أفراد آل فتلة البالغ عددهم نحو خمسمائة رجل، وكذلك انظم إليه بقية آل فتلة الذين سبق أن جاؤوا مهاجرين من الفوار. وقد حدثت في أيام فرعون وكذلك في عهد أولاده من بعده على حساب أرض الجعارة سلسلة طويلة من المنازعات بين آل فتلة وحلفائهم من جهة، وكان الأتراك يسندون دائماً آل فتلة لأجل أن يقللوا من نفوذ الخزاعل، وقد ذهبت نفوس كثيرة من الطرفين بسبب هذه المنازعات ستتطرق إلى ذكرها في أبحاث قادمة.

الأعمال التي قامت بها إدارة السنية في منطقة الجعارة:

وفي حدود سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م سجلت أراضي الجعارة والمشخاب باسم السلطان عبد الحميد وأطلق عليها اسم الأراضي السنية. ومن هذا التأريخ صارت مرتبطة بإدارة خاصة في بغداد يرأسها مشير الفيلق، تسمى إدارة السنية، وكان أول وكيل تعيين عنها في الجعارة اسمه على أفندي. وبقيت الجعارة ومن ضمنها المشخاب والدمسم «أي قضاء أبو صخير بمحدوده الحالية» تدار من قبل إدارة السنية، ثم انتقلت بعد خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م، أوائل ١٣٢٧هـ إلى دائرة الأملاك الأميرية التي أطلق عليها اسم الأملاك المدورة.

ولقد قامت إدارة السنية خلال هذه المدة بعدة إصلاحات في منطقة الجعارة منها: أنها أنشأت داراً كبيرة للحكومة ومخزناً للأطعمة الأميرية في أبو صخير وهمالا يزالان باقيان حتى اليوم، وباليتهما لم تنشئهما؛ لأنها أرادت أن تقتصد في نفقة البناء فعمدت إلى قصر الخورنق وكان يومئذ

عامراً فهدمته وبنتهما بأحجاره، وهي بعملها هذا قضت على آثار عربية قديمة.

وفي أوائل سنة ١٢٠٥هـ / ١٨٨٧م، سعى وكيل السنية في الجعارة وإسمه عبد الغني إلى تجفيف بحر النجف لغرض الاستفادة من أرضه، وكان بحر النجف يمون من الفرات عن طريقين أحدهما مما يلي بلدة أبو صخير من المكان المعروف اليوم باسم نهر الصافي، وهذا الطريق سد قبل عهد السنية بنحو عشرين سنة سده السيد محمد زوين وكيل الخزاعل في الجعارة المتوفى في شهر ذي الحجة سنة ١٢٨٨هـ وقد استخدم في سده الصخور، ومن أجل هذا سمي أبو صخير.

أما الطريق الثاني فيقع على بعد أكثر من عشر كيلو مترات من غربي أبو صخير ويسمى المدنگ «المدلق» وهذا هو الذي كان يمون بحر النجف بالماء، وعن طريقه كانت تدخل السفن الشراعية الكبيرة القادمة من البصرة وغيرها إلى النجف. فعمد عبد الغني وكيل السنية إلى هذا الطريق وسده سداً محكماً^(١).

نهر الحميدية:

وفي سنة ١٣٠٥هـ نفسها شرع بحفر ترعة من الجعارة إلى النجف من المكان المعروف بنهر الصافي طولها عشرون كيلو متراً وجئ بها في محاذة ساحل البحر من جهته الشرقية، وصنعوا في نهايتها بركة كبيرة. وكان قد اشترك في حفر هذه الترعة جميع أفراد عشائر منطقة الجعارة، وتم حفرها (الذي دام ستة وأربعين يوماً) وجرى الماء فيها يوم الخميس ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م المذكورة وقد أطلق عليها اسم الحميدية نسبة إلى السلطان عبد الحميد، ولكن العامة أخذوا يطلقون عليها اسم نهر السنية، وتابعهم على ذلك بعض مؤرخي النجف كالسيد حسون البراقي والشيخ محمد الكوفي^(٢)، وقد تلي في الاحتفال الذي أقيم في النجف بمناسبة إسالة الماء في النهر دعاء السلطان عبد الحميد من قبل السيد سعيد خطيب الحضرة الحيدرية جاء فيه: واسقه من حوض الكوثر.. اللهم، له ولكافة وزرائه وعساكره الحاضرين.. ومن سعى في هذا الأمر من الوكلاء والوزراء والأمراء سيما رئيس الأملاك الهمايونية ووالي ولاية بغداد.. خصوصاً البادي لهذه الخيرية مدير الجعارة ذي النفس الغنية... أعني به عبد الغني. اللهم، كما صار سبباً للدعاء لحضرة سلطاننا.. فاجعله لديه من المقبولين.. ولا سيما المعين بالنفس والمال السيد هادي المشهور بالنجابة والكمال. وكذا السيد محمد المشهور بآل بحر العلوم وكذا حاكم

(١) التيمة الغروية للبراقي.

(٢) راجع نزهة الغري ص ٥٨ و ٧٥، وكذلك كتاب التيمة الغروية.

النجف الأشرف والرئيس العسكري وقاضي المحل الدرّي والكليدار الحيدري، وجميع من أعانه على هذا الأمر الجليل من الحشور والمشايخ والسراكيل. وأغفر اللهم، لنا ولهم.. انتهى.
وهناك قصائد كثيرة قيلت بهذه المناسبة. منها قصيدة للشيخ طاهر بن الشيخ أحمد الدجيلي النجفي تشتمل على ثلاثين بيتاً يمدح بها السلطان عبد الحميد ويدعو له وللوالي مصطفى عاصم باشا والسيد هادي بن السيد محمد زوين وعبد الحميد أفندي وكيل السنية.
مطلعها:

أجرى الحميد لحيدر نهرا	حي الملوك وقل لها بشرى
	ومنها:
أهل العراق فلم يحق مكرها	كالعاصم الحامي له خضعت
	ومنها:
قد شدّ في طلب العلى أذرا	وكذلكم عبد الغني فكم
	ومنها:
أوليت ساقى الحوض في الأخرى	وسقاك يا عبد الغني بما
	ومنها:
تكبو لئيل مرامها الشعري	وأكرم بهادي الخلق ذي همم
والشيخ محمد جواد بن الشيخ محمد بن الشيخ شبيب قصيدة تشتمل على خمسة وثلاثين بيتاً كذلك يمدح بها السلطان وغيره بهذه المناسبة مطلعها:	
فصبت نمير البشر منها المنازل	صفت بعد رنق بالغري المناهل
	ومنها:
لأمركم السامي مقيم وكافل	وحسبهمو عبد الغني فتى العلى
مضى مرهف ما أرهفته الصياقل	يؤيده الهادي بعزم مضائه
	وختمها بقوله مؤرخاً:
(بري صفت للورد منه المناهل) ^(١)	بأقصى هنا وفي وقلت مؤرخاً
	وقال السيد جعفر الحلّي كذلك مادحاً السلطان وغيره بهذه المناسبة:
قدماً فقد ألت إليك زمامها	دول الممالك طأطأت لك هامها

ومنها:

بشراك قد زهت العراق بعاصم
وهي مثبتة بتمامها في ديوانه المطبوع:
وله أيضاً مخاطباً السلطان ومؤرخاً في ثلاثة أبيات هي:
أمولى الورى وافتك منى بشارة
فقد أنهل الورد منهلك العذب
جرى لك في أهل الغرين منهل
وكانوا عطاشى لا يبيل لهم قلب
جرى ماؤه عذباً فلذ شرابه
لأهل الحمى أرخته: (عذب الشرب)
وقال الشيخ عباس الأعسم مادحاً عبد الغني ومؤرخاً بهذه المناسبة:

إنما عبد الغني المرتقى
بجناحي عزمه للشهب
جد حتى نال بالجد علا
عنه ينحط رفيع الرتب
جاد بالماء ولا بدع فذي
شيمة معروفة للسحب
دفعاً جاء وقد أعى الورى
رشحة في سالفات الحقب
ولسكان الحمى إذ ظمئوا
سوغ التاريخ: (شرب العذب)
بحر النجف:

وبقي نهر الحميدية المتقدم الذكر عامراً إلى سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م ثم طم مجراه وبهذا التاريخ جف بحر النجف الذي سبق لعبد الغني وكيل السنية (في الجعارة) أن سد طريق مجراه سنة ١٣٠٥هـ، وظهر ما كان في قاعه من أنقاض السفن التي غرقت فيه قديماً وبعض الأشياء الأخرى، ومن غريب ما شوهد فيه عند جفافه ظهور السلاحف التي كانت تعيش بمائه، فإنها ظهرت ظهوراً غريباً بحيث ترى الأسراب من نوعها مؤلفة من الألوف وأمامها فحولها وذكر أنها تدلها على الطريق متجهة من الموضع المعروف برأس الماء (المكان الذي يقيم فيه أبو عامر اليوم) إلى نهر الفرات عن طريق أبو فشيحة مسافة فرسخ ونصف وتقاوم كل من عارضها في الطريق^(١). وموقع هذا البحر غربي النجف، وكانت البقعة التي يشغلها فيما مضى قسماً من البحر، غير أن ارتفاع الأرض بسبب تراكم الأتربة المترسبة في قاعة من مياه الفرات فصلت هذه البقعة عن البحر^(٢) وباعدت بينه وبينها، وبفهم من الروايات التاريخية ومن التلال الأثرية الواقعة فيه أنه كان جافاً في عهد المناذرة، واستمر جفافه إلى سنة ١٢٤٠هـ المارة الذكر.

(١) حوادث العراق في القرن الثالث عشر الهجري للشيخ محمد علي البعقوبي (مخطوط).

(٢) يقدر انخفاض قاع البحر اليوم عن سطح بلدة النجف المطللة عليه بنحو خمسين متراً.

وقد وصف بحر النجف بعد جفافه الأخير غير واحد من المؤرخين والكتاب. منهم الشيخ محمد الكوفي النجفي فقد قال عنه في ضمن كلامه عن نهر الحميدية المتقدم الذكر بما هذا لفظه: في سنة ١٣٠٥ هـ ابتدعوا نهراً من ماء الفرات وأوصلوه إلى بحر النجف وسموه نهر السنية، وقد غاض ماء البحر ونضب بعد ما كان بجرأ عظيماً ذا أمواج عظيمة تغرق فيه السفن، وقد غرقت فيه سفن كثيرة وذهبت فيه أموال وافرة فصار أرضاً يابسة يخشى السائر فيه الهلاك من العطش، واليوم فيه نخيل وأشجار ومزارع وأثمار تنقل إلى النجف، وصار سنية بمعنى مخصوص السلطان دون المسلمين فسبحان من يغير ولا يغير^(١).

ومنهم السيد محمد رشيد السعدي في كتاب قرة العين، قال بعد وصفه لمدينة النجف: وفي الجنوب الشرقي (كذا) من هذه المدينة نحو نصف فرسخ كانت بحيرة تسمى بحر النجف، طولها عشرة فراسخ وعرضها كذلك، وعمقها ثلاثة أذرع بالذراع البغدادي، ترد السفن إليها من البصرة وتدخل إليها بقرب قرية يقال لها الشنافية^(٢)، وقد سافرت فيها ورأيتها سنة ١٢٨٥ و١٢٨٧ هـ، وفي سنة ١٣١٠ هـ نشفت وصارت قاعاً^(٣) وفي وقتنا هذا أعني سنة ١٣٢٥ هـ صارت أراضي تلك البحيرة كثيرة الزرع والخصب وتسقى من نهر الفرات. انتهى.

نهر الحيدرية:

ومما قامت به إدارة السنية أيضاً أنها شرعت في سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م (في عهد وكيل السنية في الجعارة راقم أفندي) في حفر نهر جديد من الجعارة إلى النجف بسعي من قائممقام النجف خير الله أفندي وجئ به على آثار سابقة وأطلق عليه اسم الحيدرية، وقد تم حفره وجرى فيه الماء في شهر شعبان سنة ١٣١٠ هـ المذكورة. وللسيد جعفر الحلبي قصيدة يمدح بها السلطان عبد الحميد بهذه المناسبة استهلها بقوله:

جرى ماؤنا من لطف سلطاننا عذبا
فلمنا طعاماً وطاب لنا شرباً
شمننا شذا أنفاسه حين جريه
فانشقنا الريحان والمندل الرطبا
وختمها بقوله مؤرخاً:
لقد صدقت أنباؤها وهي عذبة
إذا الناس في تأريخها: (شربوا العذبا)

(١) نزهة للغري ص ٥٨.

(٢) تقع بلدة الشنافية على الفرات على بعد نحو ٤٨ كيلو متراً من جنوب أبو صخير. ويرجع زمن تأسيسها إلى سنة ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م، وكان بحر النجف ينتهي بها، ثم تقلص تدريجاً وصار اسمه لا يطلق إلا على المنخفض الواقع في غربي النجف.

(٣) لعل الكاتب أخذ سنة جفاف بحر النجف من الأفواه وقد مرّ الكلام أنه جف تماماً سنة ١٣٠٧ هـ.

أنهر الجعارة:

كان المجري الرئيس لفرات الهندية في بادئ أمره ينتهي عند قرية أبو صخير الواقعة على بعد عشرين متراً من جنوب بلدة الكوفة الحالية، ومن ثم يتحول إلى عدة أنهر بعضها يجري نحو الجنوب والجنوب الشرقي، وهذه الفروع كانت تسمى المشايب ثم توحدت بطبيعتها وصارت نهراً واحداً هو المعروف اليوم بإسم المشخاب.

أما بقية الفروع فكانت تجري نحو الغرب وبعد أن تقطع مسافة ليست بالبعيدة تنعطف نحو الشمال وتنتهي ببحر النجف، وهذه هي أنهر الجعارة (الخيرة) التي نريد أن نتحدث عنها:

١- نهر البكرية:

بقيت هذه الأنهر الغربية تأخذ من الفرات مباشرة إلى أواخر أيام العهد العثماني، ثم سعى أحد مأموري الأتراك في الخيرة وإسمه بكر أفندي إلى توحيد هذه الأنهر وإنشاء ممون رئيسي لها طوله أكثر من كيلو مترين، ومن هنا صارت هذه الأنهر الغربية تتمون من الترعة المذكورة التي أطلق عليهما إسم البكرية.

٢- نهر جحات:

ثم اتفق على أثر فيضان الفرات سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، أن ظهر فرع جديد للمشخاب من نقطة تبعد أكثر من كيلومتر واحد من جنوب صدر نهر البكرية المتقدم الذكر وراح يشق طريقه بسرعة فائقة نحو المنخفضات الغربية وأطلق على هذا الفرع الجديد اسم نهر جحات نسبة إلى صاحب الأرض التي ظهر فيها وهو جحات بن علوان البختري. وفي خلال عام ١٩١٨ سدت حكومة الاحتلال نهر جحات من صدره، وكذلك سدت نهرين آخرين يقعان على مقربة منه ويجريان في نفس الاتجاه الذي يجري فيه وهما نهر أبو مطي (بالتصغير) ونهر الحسانية، وأبقت نهر البكرية وحده بعد أن مددته حتى أوصلته بجزائر نهر جحات الأنف الذكر، ومن هذا التاريخ صار نهر البكرية يعرف باسم نهر جحات، وهو اليوم من الأنهر المهمة يقع صدره عند بلدة أبو صخير، ويجري أولاً نحو الغرب مسافة كيلو مترين ثم ينعطف نحو الجنوب ويجري بموازات نهر المشخاب، وبعد أن يقطع مسافة تقدر بأكثر من عشرين كيلو متراً ينتهي بهور صليب بعد أن تخرج منه فروع كثيرة لسقي مزارع الشلب الممتدة بامتداده، وينزل على هذا النهر وفي سقيه آل فتلة والغزالات وآل شبل وبعض الأسر العلوية كآل سيد محسن العذارى وآل سيد عبد الله العذارى وآل سيد محمد أبو طيبخ، ومن مقاطعاته الطرة والهارمية وشبينة وغيرها.

٣- نهر الصافي:

كان يسمى الجعارة ثم سمي الصافي ثم الدعامية نسبة إلى زراعة الدعوم ثم الحميدية في

سنة ١٣٠٥هـ، وقء مر الكلام علها ثم الءلءلرفة سنة ١٣١٠هـ وقء مر ذكرها أفضاً، ثم ءءول الأمر غازل سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣٢م) وفل سنة ١٩٥٨ أطلق علها اسم السءلر، وأما صءره الءل برل على مقربة من بلءة أبو صءلر فهو ءابء لم ٱءفر بءفر الأسماء.

٤- نهر أبو ءءوع:

هءا هو اسمه القءلم ثم سمل الءسلنل وفل سنة ٩٥٨ سمل ءءول النعمان. ٱآءل من بعء سابقه وٱءرل ءو الشمال أفضاً فلهب إلى الأراضل المعروفة باسم الرمل فلسقلها ومنها وٱءءل فل بءر النءف.

٥- نهر البءلرفة:

هءا هو إسمه القءلم، ثم سمل الفلصلل وأطلق علها أءلراً إسم ءءول الءلرفة. ٱآءل من بعء سابقه وٱر ببلءة الءلرفة (الءءارة سابقاً) فلسطرها إلى شطرلن ومنها لهب فلسقل بساآلن الءءارة، ومن ثم ٱءءل فل بءر النءف فل أراضل الءزالاء والءءوم وءلرهم، وفل ءءوء سنة ١٩٥٥م طهرء الءءومة هءا النهر ثم مءءءه فل سنة ٩٦٣ إلى نهاة بءر النءف إلى المكان المعروف باسم الفءءة وءقع على ءهءل هءا النهر البالغ عرضة سءة أمار عدة ءلال أءرفة منها: ءل المنبءء، وءل أبو الءبلع، وءل الصنلن، وءل أم ءصانل وءلرها.

٦- نهر الهاشمل:

هءا كان الءعى منذ مءة وءمسلن عاماً، وفل سنة ١٩٥٨م قرر هءلب الءا ءءموء وزلر الزراعة لومءء اسءبءال إسمه القءلم باسم ءءول الءسم لءقلءءه بأنه منسوب إلى العائلة المالءة. ٱقع صءره بالقرب من قرفة الءءارة فل أرض ءسمى أبو شبوط وٱءرل ءو الغرب، وهو بعء أن ٱقءع مسافة ءقءر بنءو ءمسة عشر ءللو مءراً ٱصل إلى قرفة إسمها الءسم وبعء أن ٱءءاها بمسافة للسء بالبعلءة ٱءءل فل موءع ٱسمى القرءة. وءسمى الأراضل الواقعة على نهر الهاشمل وفل سقله باسم أراضل الءسم وهل أراضل ءصبة ءءر فلهل بساآلن النءل، وكان هءا النهر فلما مضل بمءابة العموء لنهر الفراء أما اللوم فللسء له بعض ءلك الأهمفة.

أما قرفة الءسم الواقعة علها فهل من أقءم قرل قضااء أبو صءلر، أسسها سلء مءء بن سلء ءسن زولن وءلل الءزاعل فل منءقة الءلرفة المءوفل فل شهر ذل الءءة سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) وءوطنها مءة ثم اءءءءها ءءومة الأءراك مركزاً لناءفة الءءارة وءلنء لها مءلراً إسمه لطفل أعا، وهل اللوم قرفة بسلطة ءاملة فلهل مءرسة ابءءائفة ءءمل اسم القاءء العربل سءء بن أبل وقاص، وفل أوائل سنة ١٩٥٨م أنشأء الءءومة لها فل هءه القرفة بنافة ضءمة ذاء أبراء.

هذه هي أهم أنهار الجعارة (الحيرة) وجميعها لا تزال عامرة. وهناك أنهار أخرى مندرسة كنهرو أبو شبوط، وأبو مطي (مصغر) والحسانية. وهذه كانت جميعها تتمون من الفرات مباشرة وقد ماتت جميعها.

شط المشخاب

لقد مرّ القول بأن فرات الكوفة كان ينشطر عند بلدة أبو صخير إلى شطرين يسمى الغربي منهما جحات، والثاني وهو موضوع بحثنا يسمى المشخاب. ونهر المشخاب هذا هو المجرى الرئيس اليوم للفرات طوله ٢٤ كيلو متراً وتقع عليه مزارع جسيمة، وكانت أرضه حتى سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) بعد لا تزال مغمورة بالمياه (أهواراً) وكانت تشكل جزءاً من المنخفض الواسع المعروف يومئذ بإسم بحر النجف.

وسبب تسميته بالمشخاب هو أن فرات الهندية لما وصل إلى مكان بلدة أبو صخير أخذت مياهه تشخب في أراضي البحر الواطئة بواسطة عدة مجاري فأطلق عليه اسم المشايب، ثم توحدت تلك المجاري بطبيعتها وتكون منها نهر المشخاب الحالي.

وفي اللغة: الشخب (بفتح الشين المشددة وسكون الخاء) ما خرج من الضرع من اللبن إذا احتلب، والشخب بالفتح المصدر. والشخبة الدفعة منه والجمع شخاب، وقيل: الشخب بالضم من اللبن ما امتد منه والجمع شخاب، وقيل: الشخب بالضم من اللبن ما امتد منه حين يجلب متصلاً بين الإناء والطبي شخبه شخباً فانشخب، وقيل الشخب: صوت اللبن عند الحلب. وفي حديث الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة. وانشخب عرقه دماً إذا سال، وقولهم: عروقه تشخب دماً أي تفجر^(١).

يبدأ شط المشخاب من بلدة أبو صخير الراكبة على ضفته اليمنى ويمر نحو الجنوب وبعد أن يقطع اثني عشر كيلو متراً يصل إلى بلدة المشخاب^(٢) ويتعداها إلى قرية سوق شعلان وهذه قرية بسيطة تقع على بعد ستة كيلومترات من قرية المشخاب، ومنها يذهب إلى القادسية وهي قرية حادثة على بعد أربعة وعشرين كيلو متراً من أبو صخير ويطلق على قسمه الأخير الواقع عند بلدة القادسية اسم أبو عشرة، وقد أنشأت مديرية الري في نهايته ناظماً لصدّ الكارات في الفرات وأسمته ناظم أبو عشرة. وبعد هذا يستمر المجرى فيصب في نهر العطشان الذي كان

(١) لسان العرب / مادة شخب.

(٢) كانت تسمى السوارية نسبة إلى رجل من آل فتله اسمه سوار، ثم سميت الفيصلية على أثر زيارة الملك فيصل الأول لقضاء الشامية سنة ١٣٥٢هـ وفي سنة ١٩٥٨م سميت المشخاب.

يطلق عليه في السابق بحر الشنافية وهناك تلقى به الجارة الغربية ثم الجارة الشرقية ويستمر المجرى فيمر ببلدة الشنافية الواقعة على بعد نحو أربعة وعشرين كيلو متراً من القادسية وثمانية وأربعين كيلو متراً من أبو صخير ومنها إلى السماوة فالناصرية فسوق الشيوخ فالقرنة وفيها يلتقي بنهر دجلة ويشكلان شط العرب.

فروع شط المشخاب:

تتفرع من ضفتي شط المشخاب جداول ونهيرات كثيرة يسمون الواحد منها طبر ويجمعونها طبارة، وإليك أسماءها بحسب ترتيبها من الشمال إلى الجنوب:

فالجداول المتفرعة من الضفة اليمنى هي:

١- المجهيلة: يعود إلى حاج عباس آل حاج لهوف، وحاج حسن آل ظويهر وغيرهما من آل فتلة.

٢- الدينية: نهر كبير تخرج منه فروع كثيرة لسقي أراضي مقاطعات أبو واوية والعيلة والطوق العائدة لآل فتلة، ومن ثم يذهب إلى أراضي الغزالات فيسقيها وينتهي في هور صليب.

٣- طبر فرعون: نسبة إلى فرعون بن ياقوت شيخ الفتلة، وهو نهر صغير يقع صدره بالقرب من بلدة المشخاب.

٤- السوارية: نسبة إلى رجل من آل فتلة إسمه سوار يقع صدره عند بلدة المشخاب (السوارية سابقاً) من جهتها الجنوبية، كان نهراً صغيراً ينتهي في الأهوار، وعلى أثر فيضان الفرات سنة ١٣٢٢هـ توسع وتمدد وحدثت عليه مزارع شلبية جسيمة كمقاطعة أم عردة وغيرها، وهو لا يزال من الأنهر المهمة، تقع عليه دار عبد العباس آل مزهر الفرعون، ومن سكانه القيادة وآل كيم والعبودة وآل سيد حمود الياسري وآل سيد إدريس المحنة وغيرهم.

٥- بريهي: يأتي من بعد سابقه ويعود لآل فتلة أيضاً.

٦- طبر سيد نور: نهر كبير منسوب إلى سيد نور بن سيد عزيز الياسري، وتسمى الأراضي الواقعة عليه (الجزرة) وهي أراضي شلبية واسعة تعود إلى سيد نور الياسري، وتقع عليه قرية كبيرة فيها سوق يقال لها قرية الأيشان وهي من أقدم القرى التي أنشئت في منطقة المشخاب.

٧- أبو الدجيج: نهر كبير تقع عليه أرض واسعة تسمى أم البط تعود إلى آل عواد من آل إبراهيم.

هذه هي أهم الجداول والنهيرات المتفرعة من المشخاب من جهته الغربية، وجميعها تنتهي بالجارة الغربية (مبزل)، والجارة الغربية تجري بموازات شط المشخاب وتمر على تل الطرمة الذي ينزل عليه علي آل مزعل رئيس الغزالات، ومن ثم ينتهي بنهر العطشان في نقطة تقع جنوب ناظم أبو عشرة.

أما أهم الجداول التي تتفرع من ضفة المشخاب اليسرى هي:

- ١- المالحه: نهر صغير يقع صدره بالقرب من أبو صخير ويعود إلى حاج كاظم الحيدري.
- ٢- شلال: منسوب إلى آل شلال الخزاعين، وهو نهر كبير ينتهي بالجارة الشرقية، والأراضي الواقعة عليه تسمى أراضي هور نعيم وهي أراضي شلبية واسعة تعود ملكيتها إلى آل شتته الفرعون وآل حاج سكر الفرعون وآل سيد علوان الياسرى وآل سيد حسن العذارى.
- ٣- عايش: نهر صغير، يعود إلى عبد الواحد آل سكر رئيس آل فتلة.
- ٤- الكطاع: بكاف فارسية، نهر صغير يعود إلى حاج عبد الواحد أيضاً.
- ٥- أم ليرة: نهر صغير يعود لآل فتلة.
- ٦- الكوثرى: نهر صغير يمتلك أكثر أراضي أولاد مجهول آل شتته الفرعون.
- ٧- أبو قريصه: يعود لآل إبراهيم.
- ٨- أبو قهيوة: يعود لآل إبراهيم.
- ٩- أبو جكي: بكاف فارسية، نهر كبير يعود لآل إبراهيم.
- ١٠- اللواح: يعود لآل إبراهيم.
- ١١- المقير: يعود لآل إبراهيم أيضاً، ويشاركهم فيه سيد علوان وسيد عبد الجواد الياسريان.
- ١٢- التوبى: يعود إلى سيد علوان الياسرى.
- ١٣- الليثاوي: يعود أيضاً إلى سيد علوان الياسرى، والأراضي الواقعة في سقي هذا النهر والنهر السابق له تسمى أراضي أم رغلة تبلغ مساحتها (٢٨٠٠) دونماً وتعود جميعها إلى سيد علوان الياسرى.
- ١٤- الأحيمر: نسبة إلى أراضي الأحيمر الواقعة في سقيه، والأحيمر تل أثري يتوسط هذه الأرض، ويقال لهذا النهر أيضاً طبر شعلان نسبة إلى شعلان آل جبر رئيس آل إبراهيم، وهو يعود إلى سيد علوان الياسرى.
- ١٥- الشاطى: يعود إلى مجيد آل عواد آل سهل من آل إبراهيم.
- ١٦- القوة: ينزل عليه آل صراف وآل حبيب من آل سهل من آل إبراهيم.

١٧- اليعو: بفتح الياء والعين وسكون الواو. نهر كبير، عميق القعر، يقع صدره على بعد كيلو متر واحد من فوق مركز ناحية القادسية، كان من ابتداء أمره نهيراً صغيراً، وفي سنة ١٩٢٧م اجتمع أفراد قبيلتي آل شبل والغزالات النازلين عليه وكروه وجعلوا عرضه خمسة أمتار بعمق متر واحد، وعلى أثر هذا دخلت فيه النجارة ووسعته كثيراً، وحصل من جراء توسعه أن أثر على زراعة المشخاب، وهذا مما جعل مديرية الري تهتم للأمر فأنشأت في بزايه شلالاً لمنع تقدم النجارات، وفي نفس الوقت والغرض نفسه شرعت بإنشاء ناظم أبو عشرة المتقدم الذكر على عمود الفرات. وبعد مرور سنتين انهار شلال اليعو من شدة تيار جريان الماء فأنشئ بدله شلال آخر في نقطة تقع على مقربة من صدره وهو الشلال الحالي المعروف باسم ناظم اليعو.

واليعو اليوم نهر عريض عميق القعر يبلغ طوله نحو ثلاثة كيلو مترات ثم ينتهي بالجارة الشرقية، والجارة ويراد بها البزل تنتهي بنهر العطشان. ومن الأراضي الواقعة على نهر اليعو في سقيه، المرانة العائدة إلى أهل السداين وهم فرقة من الغزالات، وأم سباع العائدة إلى آل شبل، وهاتان المقاطعتان تقعان في الجهة الغربية من مجراه، أما الأراضي الواقعة في الجهة الشرقية منه فمنها الغزالية العائدة إلى آل عواد من رؤساء آل إبراهيم، ومنها جزيرة العبودة.

